

٨ — قَاعِدَةٌ فِي أَنَّهُ كُلُّ مَعْنَى مُسْتَنْبَطَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ غَيْرُ جَارٍ عَلَى اللِّسَانِ

الْعَرَبِيِّ فَلَيْسَ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ فِي شَيْءٍ

قَالَ الشَّاطِبِيُّ: كَوْنُ الظَّاهِرِ هُوَ الْمَفْهُومُ الْعَرَبِيُّ مُجَرَّدًا، لَا إِشْكَالَ فِيهِ. لِأَنَّ الْمَوَاقِفَ وَالْمُخَالَفَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ مُنْزَلٌ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. وَقَالَ سَبْحَانَهُ: «وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» ثُمَّ رَدَّ الْحَكَايَةَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (١). وَهَذَا الرَّدُّ عَلَى شَرْطِ الْجَوَابِ فِي الْجَدَلِ. لِأَنَّهُ أَجَابَهُمْ بِمَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ بِلِسَانِهِمْ. وَالبَشَرُ، هُنَا، حَبْرٌ. وَكَانَ نَصْرَانِيًّا. فَأَسْلَمَ. أَوْ سُلَمَانٌ، وَقَدْ كَانَ فَارِسِيًّا فَأَسْلَمَ. أَوْ غَيْرَهَا مِنْ كَانَ لِسَانُهُ غَيْرَ عَرَبِيٍّ بِاتِّفَاقٍ مِنْهُمْ. وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» (٢). وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَهُمْ عَرَبِيٌّ. وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَدْ كَانُوا فُهِمُوا مَعْنَى أَلْفَاظِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَرَبِيٌّ فَقَطْ، وَإِنْ لَمْ يَتَّفَقُوا عَلَى فُهِمِ الْمُرَادِ مِنْهُ. فَلَا يَشْتَرُطُ فِي ظَاهِرِهِ زِيَادَةَ عَلَى الْجَرِيَانِ عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ. فَإِذَا كَلَّ مَعْنَى مُسْتَنْبَطَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، غَيْرُ جَارٍ عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَلَيْسَ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ فِي شَيْءٍ. لَا مِمَّا يَسْتَفَادُ مِنْهُ وَلَا مِمَّا يَسْتَفَادُ بِهِ. وَمَنْ ادَّعَى فِيهِ ذَلِكَ فَهُوَ فِي دَعْوَاهُ مُبْطَلٌ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ هَذَا الْفَصْلِ مَا ادَّعَاهُ مِنْ لَا خِلَاقَ لَهُ مِنْ أَنَّهُ مَسْمُومٌ فِي الْقُرْآنِ. كَبَيَّانُ بْنُ سَمَّانٍ حَيْثُ زَعَمَ أَنَّهُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «هَذَا بَيَّانٌ لِلنَّاسِ..» (٣) الْآيَةِ وَهُوَ مِنَ التَّرَاهَاتِ بِمَكَانٍ

(١) [١٦ / النحل / ١٠٣] وَنَصَحْنَا: وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ.

(٢) [٤١ / فصلت / ٤٤] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

(٣) [٣ / آل عمران / ١٣٨] وَنَصَحْنَا: هَذَا بَيَّانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ.

مكن ، والسكوت على الجهل كان أولى به من هذا الافتراء البارد . ولو جرى له على اللسان العربي لمدته الحق من جملتهم ، ولكنه كشف عوار نفسه من كل وجه ، عافانا الله ، وحفظ علينا العقل والدين بمنه . وإذا كان (بيان) في الآية علما له فأى معنى لقوله : «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ» كما يقال هذا زيد للناس . ومثله في الفجش من تسمى بالكِسْف ثم زعم أنه المراد بقوله تعالى «وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا» ^(١) . الآية . فأى معنى يكون للآية على زعمه الفاسد كما تقول : وإن يروا رجلا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وبيان بن سمان : هذا هو الذى تنسب إليه البنيانية من الفرق . وهو ، فيما زعم ابن قتيبة ، أول من قال بخلق القرآن . والكسف هو أبو منصور الذى تنسب إليه المنصورية . وحكى بعض العلماء أن عبيد الله الشيعي المسمى بالمهدي حين ملك أفرقية واستولى عليها ، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره . وكان أحدهما يسمى بنصر الله ، والآخر بالفتح ، وكان يقول لهما : أنما اللذان ذكركما الله في كتابه . فقال : «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» ^(٢) قالوا : وقد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى ، فبدل قوله : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» . بقوله : كتامة خير أمة أخرجت للناس .

ومن كان في عقله لا يقول مثل هذا لأن التسميتين بنصر الله والفتح المذكورتين إنما وجدا بمدانتين من السنين من وفاة رسول الله ﷺ ، فيصير المعنى إذا مات يا محمد ، ثم خلق هذان ، «وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ ..» الآية . فأى تناقض وراء هذا الإفك الذى افتراه الشيعي . قاتله الله .

ومن أرباب الكلام من ادعى جواز نكاح الرجل منا تسع نسوة حرائر . مستدلا على

(١) [٥٢ / الطور / ٤٤] ونصها : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ .

(٢) [١١٠ / النصر / ١ - ٣] ونصها : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .

ذلك بقوله تعالى : « فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ... »^(١)
ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورباع .

ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالا لأن الله قال : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ
وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ »^(٢) . فلم يحرم شيئا غير لحمه . ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره
بخلاف العكس .

ومنهم من فسر الكرسي في قوله : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ »^(٣) بالعلم
مستدلين ببيت لا يعرف . وهو :

(ولا بكرسى علم الله مخلوق) كأنه عندهم ولا يعلم علمه . وبكرسى مهموز . والكرسى غير مهموز .
ومنهم من فسر غَوَى في قوله تعالى : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى »^(٤) . إنه تخم من
أكل الشجرة . من قول العرب غَوَى الفصيل يَغْوَى غَوًى إذا بشم من شرب اللبن .
وهو فاسد لأن غَوَى الفصيل فَعَلَ ، والذي في القرآن على وزن فَعَلَ .

ومنهم من قال في قوله : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ »^(٥) أى ألقينا فيها . كأنه عندهم من

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا
مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً
أَوْ مَمْلَكَتَيْنِ بَيْنَهُمَا ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا .

(٢) [٥ / المائدة / ٣] وهذا نصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ
وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكَ فِسْقٌ ...
(٣) [٢ / البقرة / ٢٥٥] ونصها : ... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ،
وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

(٤) [٢٠ / طه / ١٢١] ونصها : فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا شَوَاهُمَا وَطَفِقَا
يَخْتَصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٧٩] ونصها : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ =

قول الناس : ذرته الريح . وذراً مهموز ، وذراً غير مهموز .

وفى قوله : « وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »^(١) ، أى فقيراً إلى رحمته . من الخلة بفتح الخاء . محتجين على ذلك بقول زهير (وإن أناه خليل يوم مسألة) قال ابن قتيبة : أى فضيلة لإبراهيم فى هذا القول ؟ أما يعلمون أن الناس فقراء إلى الله ؟ وهل « إبراهيم » فى لفظ « خليل الله » إلا كما قيل « موسى كليم الله » و « عيسى روح الله » . ويشهد له الحديث^(٢) : « لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، إن صاحبكم خليل الله »^(٣) . وهؤلاء من أهل الكلام هم النابذون للمقولات اتباعاً للرأى . وقد أدام ذلك إلى تحريف كلام الله بما لا يشهد للفظه عربى ، ولا لمنه برهان ، كما رأيت .

وإنما أكرت من الأمثلة ، وإن كانت من الخروج عن مقصود العربية والمعنى على ما علمت ، لتكون تنبيهاً على ما وراءها مما هو مثلها ، أو قريب منها .

= لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

(١) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا يَمُنُّ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

(٢) البخارى فى : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، ٣ - باب قول النبى ﷺ : « سدوا الأبواب إلا باب أبى بكر » :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال « إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر . ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر . ولسكن أخوة الإسلام ومودته . لا يبقين فى المسجد باب إلا سدُّ ، إلا باب أبى بكر » .

(٣) جامع الترمذى فى : ٤٦ - كتاب المناقب ، ١٥ - باب حدثنا محمد بن عبد الملك ابن أبى الشوارب :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه . ما خلا أبا بكر . فإن له عندنا يدأ يكافئه الله به يوم القيامة . وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر . ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ألا وإن صاحبكم خليل الله » .

نم قال الشاطبي :

فصل

وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضاً مما تقدم في المسألة قبلها ، ولكن يشترط فيه شرطان : أحدهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجرى على المقاصد العربية . والثاني : أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

فأما الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً . فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق . ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ، ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه . وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما . فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر . وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم . والأدلة المذكورة ، في أن القرآن عربي ، جارية هنا .

وأما الثاني : فلا أنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر ، أو كان له معارض ، صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن . والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء . وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم إنه الباطن ، لأنهما موفران فيه ؛ بخلاف ما فسر به الباطنية ، فإنه ليس من علم الباطن ، كما أنه ليس من علم الظاهر ، فقد قالوا في قوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ » ^(١) أنه الإمام ورث النبي علمه . وقالوا في الجنابة : إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى النسل تجديد العهد على من فعل ذلك . ومعنى الطهور هو التبري والتنظيف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام . والتيمم الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعي أو الإمام . والصيام الإمساك عن كشف السر .

(١) [٢٧ / النمل / ١٦] ونصها : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْثِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

والسكبة النبيّ . والباب علىّ . والصفاء هو النبيّ . والمروءة علىّ . والتلبية إجابة الداعي .
 والطواف سبماً هو الطواف بمحمد عليه السلام إلى تمام الأئمة السبعة . والصلوات الخمس أدلة
 على الأصول الأربعة وعلى الإمام . ونار إبراهيم هو غضب عمروذ لا النار الحقيقية . وذبح
 إسحق هو أخذ العهد عليه . وعصا موسى حجته التي تلقفت شبه السحرة . وانفلاق البحر
 افتراق علم موسى عليه السلام فيهم . والبحر هو العالم . وتظليل الغمام نصب موسى الإمام
 لإرشادهم . والمنى علم نزل من السماء . والسلوى داع من الدعاة . والجراد والقمل والضفادع
 سوالات موسى وإزاماته التي تسلطت عليهم . وتسبيح الجبال رجال شداد في الدين . والجن
 الذين ملكهم سليمان باطنية ذلك الزمان . والشياطين هم الظاهرية الذين كلفوا الأعمال الشاقة .
 إلى سائر ما نقل من خطابهم الذي هو عين الخيال ، وضحكة السامع . نعوذ بالله من الخذلان .
 قال القتيبي : وكان بعض أهل الأدب يقول : ما أشبه تفسير الروافض للقرآن إلا بتأويل
 رجل من أهل مكة للشعر . فإنه قال ذات يوم : ما سمعت بأ كذب من بني تميم . زعموا أن
 قول القائل :

بيت ، زرارة محتب بفنائنه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

أنه في رجل منهم . قيل له : فما تقول أنت فيه ؟ قال : البيت بيت الله ، وزرارة الحج .
 قيل : فمجاشع ؟ قال : زمزم جشمت بالماء . قيل : فأبو الفوارس ؟ قال : أبو قبيس . قيل :
 فنهشل ؟ قال : أشده . وصمت ساعة ثم قال : نعم نهشل مصباح السكبة لأنه طويل أسود
 فذلك نهشل . انتهى ما حكاه .

ثم قال الشاطبي :

فصل

وقد وقعت في القرآن تفاسير مشكلة يمكن أن تكون من هذا القبيل أو من قبيل الباطن الصحيح. وهي منسوبة لأناس من أهل العلم ، وربما نسب منها إلى الساف الصالح . فمن ذلك فوائح السور نحو : ألم ، والمص ، وحم ، ونحوها . فسرت بأشياء . منها ما يظهر جريانه على مفهوم صحيح ومنها ما ليس كذلك . فينقلون عن ابن عباس أن « ألم » أن ألف الله . ولام جبريل . وميم محمد ﷺ . وهذا ، إن صح في النقل ، فمشكل . لأن هذا النمط من التصرف لم يثبت في كلام العرب هكذا مطلقا . وإنما أتى مثله إذا دل عليه الدليل اللفظي أو الحالى كما قال : (قلت لها قفى فقالت قاف) وقال : (قالوا جميعا كلهم بلى فا) وقال : (لا أريد الشهر إلا أن تأ) والقول في « ألم » ليس هكذا . وأيضاً فلا دليل من خارج يدل عليه . إذ لو كان له دليل لاقتضت المادة نقله ، لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه . ولما لم يثبت شيء من ذلك دل على أنه من قبيل التشابهات . فإن ثبت له دليل يدل عليه ، صير إليه . وقد ذهب فريق إلى أن المراد الإشارة إلى حروف الهجاء ، وأن القرآن منزل بجنس هذه الحروف وهى العربية . وهو أقرب من الأول . كما أنه نقل أن هذه الفوائح أسرار لا يعلم تأويلها إلا الله ؛ وهو أظهر الأقوال فهى من قبيل التشابهات . وأشار جماعة إلى أن المراد بها أعدادها . تنبيهاً على مدة هذه المسلة . وفى السير ما يدل على هذا المعنى . وهو قول يفتقر إلى أن العرب كانت تعهد فى استعمالها الحروف المقطعة أن تدل بها على أعدادها . وربما لا يوجد مثل هذا ، لها ، البتة . وإنما كان أصله فى اليهود حسبما ذكره أصحاب السير . فأنت ترى هذه الأقوال مشكلة إذا سبرناها بالسبار المتقدم . وكذلك سائر الأقوال المذكورة فى الفوائح مثلها فى الإشكال وأعظم . ومع إشكالها فقد اتخذها جمع من المنتسبين إلى العلم ، بل إلى الاطلاع والكشف على حقائق الأمور ، حججاً فى دعاو ادعواها على القرآن . وربما نسبوا شيئاً من ذلك إلى على بن أبى طالب ، وزعموا أنها

أصل العلوم ، ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة . وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى في خطابه العرب الأمية التي لا تعرف شيئاً من ذلك . وهو ، إذا سلم أنه مراد في تلك الفواتح في الجملة ، فما الدليل على أنه مراد على كل حال من تركيبها على وجوه ، وضرب بعضها ببعض ، ونسبتها إلى الطبائع الأربع ، وإلى أنها الفاعلة في الوجود ، وأنها مجمل كل مفصل ، وعنصر كل موجود . ويرتبون في ذلك ترتيباً جميعه دعاؤه محالة على الكشف والاطلاع . ودعوى الكشف ليس بدليل في الشريعة على حال ، كما أنه لا يعد دليلاً في غيرها ، كما سيأتي بحول الله .

ثم قال الشاطبي :

فصل

ومن ذلك أنه نقل عن سهل بن عبد الله في فهم القرآن أشياء مما يمد من باطنه . فقد ذكر عنه أنه قال في قوله تعالى « فَلَا تَجْمَعُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا »^(١) أى أضداداً . قال : وأكبر الأنداد النفس الأمارة بالسوء ، الطواعة إلى حظوظها ومنهيا بغير هدى من الله . وهذا يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد ، حتى لو فصل لكان المعنى : فلا تجمعوا لله أنداداً لا صنماً ولا شيطاناً ولا النفس ولا كذا . وهذا مشكل الظاهر جداً ، إذ كان مساق الآية ومحصول القرائن فيها يدل على أن الأنداد الأصنام أو غيرها مما كانوا يعبدون ، ولم يكونوا يعبدون أنفسهم ولا يتخذونها أرباباً . ولكن له وجه جار على الصحة ، وذلك أنه لم يقل إن هذا هو تفسير الآية ، ولكن أتى بما هو ند في الاعتبار الشرعى الذى شهد له القرآن من جهتين :

إحداها : أن الناظر قدياًخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار ، فيجريه له فيما ينزل فيه ، لأنه يجاممه في القصد أو يقاربه ، لأن حقيقة الند أنه المضاد لندّه ، الجارى على مناقضته . والنفس الأمارة هذا شأنها ، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها ، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها . وهذا هو الذى يعنى به الند في نده . لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه . وشاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »^(٢) وهم لم

(١) [٢ / البقرة / ٢٢] ونصها : الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْمَعُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

يعبدوهم من دون الله ولكنهم ائتمروا بأوامرهم ، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان. فما حرموا عليهم حرموه ، وما أباحوا لهم حللوه ، فقال الله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » وهذا شأن المتبع لموى نفسه .

والثانية : أن الآية : ، وإن نزلت في أهل الأصنام ، فإن لأهل الإسلام فيها نظراً بالنسبة إليهم . ألا ترى أن عمر بن الخطاب قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان : أين تذهب بكم هذه الآية « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » ^(١) ؟ وكان هو يعتبر نفسه بها. وإنما أنزلت في الكفار لقوله : « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ » الآية ولهذا المعنى تقرير في العموم والخصوص . فإذا كان كذلك ، صح التنزيل بالنسبة إلى النفس الأمارة في قوله : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا » والله أعلم .

(١) [٢٦ / الأحقاف / ٢٠] ونصها : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ .

ثم قال الشاطبي :

فصل

ومن المنقول عن سهل أيضاً في قوله تعالى: « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ »^(١) قال: لم يرد معنى الأكل في الحقيقة وإنما أراد معنى مساكنة الهممة لشيء هو غيره ، أى لا تهتم بشيء هو غيرى . قال : فأدّم لم يعصم من الهممة والتدبير فالحق ما لحقه . قال : وكذلك كل من ادعى ما ليس له ، وساكن قلبه ، ناظراً إلى هوى نفسه ، لحقه الترك من الله ، مع ما جبلت عليه نفسه فيه ، إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره ، وينصره على عدوه وعليها .

قال : وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة ، لأن البلاء في الفرع دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه ، فغلب الهوى والشهوة العلم والعقل بسابق القدر ، إلى آخر ما تكلم به .

وهذا الذى ادعاه في الآية خلاف ما ذكره الناس من أن المراد النهى عن نفس الأكل ، لا عن سكون الهممة لغير الله ، وإن كان ذلك منهيّاً عنه أيضاً ، ولكن له وجه يجرى عليه لمن تأول ، فإن النهى إنما وقع عن القرب لا غيره ، ولم يرد النهى عن الأول تصريحاً ، فلا منافاة بين اللفظ وبين ما فسر به .

وأيضاً فلا يصح حمل النهى على نفس القرب مجرداً . إذ لا مناسبة فيه تظهر ، ولأنه لم يقل به أحد ، وإنما النهى عن معنى في القرب . وهو إما التناول والأكل ، وإما غيره ، وهو شيء ينشأ الأكل عنه ، وذلك مساكنة الهممة ، فإنه الأصل في تحصيل الأكل . ولا شك في أن السكون لغير الله لطلب نفع أو دفع ، منهي عنه . فهذا التفسير له وجه ظاهر ،

(١) [٢ / البقرة / ٣٥] ونصها : وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

و [٧ / الأعراف / ١٩] ونصها : وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

فكأنه يقول: لم يقع النهي عن مجرد الأكل من حيث هو أكل ، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله ، إذ لو انتهى لكان ساكناً لله وحده . فلما لم يفعل ، وسكن إلى أمر في الشجرة غره به الشيطان ، وذلك الخلد المدعى ، أضاف الله إليه لفظ العصيان ، ثم تاب عليه إنه هو التواب الرحيم . ومن ذلك أنه قال في قوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ . . . » ^(١) الآية - باطن البيت قلب محمد ﷺ ، يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد ، واقتدى بهديته . وهذا التفسير يحتاج إلى بيان . فإن هذا المعنى لا تعرفه العرب . ولا فيه من جهتها وضع مجازي مناسب ، ولا يلائمه مساق بحال ، فكيف هذا ؟ والعذر عنه أنه لم يقع فيه ما يدل على أنه تفسير للقرآن . فزال الإشكال إذاً . وبقي النظر في هذه الدعوى . ولا بد ، إن شاء الله ، من بيانها .

ومنه قوله في تفسير قول الله تعالى : « يُؤْمِنُونَ بِالْجَبِيتِ وَالطَّاغُوتِ » ^(٢) قال : رأس الطواغيت كلها النفس الأمارة بالسوء إذا خلا العبد معها للمعصية . وهو أيضاً من قبيل ما قبله . وإن فرض أنه تفسير فعل ما مر في قوله تعالى : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا » . وقال في قوله تعالى : « وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى . . . » ^(٣) الآية - أما باطنها فهو القلب ، والجار الجنب النفس الطبيعي ، والصاحب بالجنب العقل القتدي بعمل الشرع ، وابن السبيل الجوارح المطيعة لله عز وجل ، وهو من المواضع المشككة في كلامه .

(١) [٣ / آل عمران / ٩٦] ونصها : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْمَآمِنِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ٥١] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبِيتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا .

(٣) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالنَّاسِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا .

ولغيره مثل ذلك أيضاً . وذلك أن الجارى على مفهوم كلام العرب في هذا الخطاب ما هو الظاهر من أن المراد بالجار ذى القربى وما ذكر معه ما يفهم منه ابتداء . وغير ذلك لا يعرفه العرب . لا مَنْ آمن منهم ولا مَنْ كفر . والدليل على ذلك أنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن بماثله أو يقاربه ، ولو كان عندهم معروفاً لنقل ، لأنهم كانوا أحرى بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأئمة ، ولا يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها ، ولا هم أعرف بالشرعة منهم . ولا ، أيضاً ، ثمَّ دليل يدل على صحة التفسير . لا من مساق الآية ، فإنه ينافيه . ولا من خارج ، إذ لا دليل عليه كذلك . بل مثل هذا أقرب إلى ما ثبت رده ونفيه عن القرآن ، من كلام الباطنية ومن أشبههم .

وقال في قوله : « صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » ^(١) الصرح نفس الطبع ، والمرد الهوى . إذا كان غالباً ستر أنوار الهدى بالترك من الله تعالى العصمة لعبده .

وفي قوله : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا » ^(٢) أى قلوبهم عند إقامتهم على ما نهوا عنه ، وقد علموا أنهم مأمورون منهيون ، والبيوت القلوب ، فمنها عامرة بالذكر ، ومنها خراب بالغفلة عن الذكر .

وفي قوله تعالى : « فَانْظُرْ إِلَىٰ ءِثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » ^(٣) قال : حياة القلوب بالذكر .

(١) [٢٧ / النمل / ٤٤] ونصها : قَبِلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] ونصها : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٠ / الروم / ٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَىٰ ءِثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وقال في قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» ^(١) الآية - مثل الله القلب بالبحر، والجوارح بالبر . ومثله أيضاً بالأرض التي تزهى بالنبات . هذا باطنه .

وقد حمل بعضهم قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ » ^(٢) على أن المساجد القلوب ، تمنع بالمعاصي من ذكر الله .

ونقل في قوله تعالى : « فَأَخْلَعَ نَمْلِيكَ » ^(٣) أن باطن النملين هو الكونان الدنيا والآخرة ، فذكر عن الشبلي أن معنى : « اخلع نمليك » اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية . وعن عطاء « اخلع نمليك » عن الكون ، فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب .

وقال : النمل النفس ، والواد المقدس دين المرء ، أى حان وقت خلوك من نفسك ، والقيام معنا بدينك ، وقيل غير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد في النقل عن السلف . وهذا كله ، إن صح نقله ، خارج عما تفهمه العرب ، ودعوى مالا دليل عليه في مراد الله بكلامه .

ولقد قال الصديق ^(٤) : « أى سماء تظلني ، وأى أرض تقلني ، إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم » .

(١) [٣٠ / الروم / ٤١] ونصها : ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَمْ لَهُمْ يَرْجِعُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١١٤] ونصها : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٢٠ / طه / ١٢] ونصها : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَمْلِيكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى .

(٤) جاء في تفسير ابن كثير : وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : ثنا محمد بن يزيد عن العوام ابن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى : وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . فقال : أى سماء تظلني وأى أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم . منقطع اه .

وفي الخبر^(١) : من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ . وما أشبه ذلك من التحذيرات . وإنما احتيج إلى هذا كله لجلالة من نقل عنهم ذلك من الفضلاء ، وربما ألمَّ الغزالي بشيء منه في الإحياء وغيره . وهو مزية قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم . فإن الناس ، في أمثال هذه الأشياء ، بين قائلين : منهم من يصدق به ويأخذ به على ظاهره ويمتد أن ذلك هو مراد الله تعالى من كتابه ، وإذا عارضه ما ينقل في كتب التفسير على خلافه ، فربما كذب به أو أشكل عليه . ومنهم من يكذب به على الإطلاق ويرى أنه تقول وبهتان ، مثل ما تقدم من تفسير الباطنية ومن هذا حذوهم . وكلا الطريقين فيه ميل عن الإنصاف . ولا بد قبل الخوض في رفع الإشكال من تقديم أصل مسلم يتبين به ما جاء من هذا القبيل ، وهي :

« المسألة العاشرة »

فنقول : إن الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الظاهرة للبصائر ، إذا حجت على كمال شروطها ، فهي على ضربين :

أحدها : ما يكون أصل انفجاره من القرآن ، ويتبعه سائر الموجودات ، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نور البصيرة فيه حجب الأكوان من غير توقف ، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل حسبما بينه أهل التحقق بالسلوك .

والثاني : يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئياً أو كلياً ، ويتبعه الاعتبار في القرآن .

فإن كان الأول ، فذلك الاعتبار صحيح ، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال ، لأن فهم القرآن إنما يردُّ على القلوب على وفق ما نزل له القرآن ، وهو الهداية التامة ، على ما يليق بكل واحد من المكلفين ، وبحسب التكليف وأحوالها ، لا بإطلاق . وإذا كانت كذلك فالشيء على طريقها مشى على الصراط المستقيم ، ولأن الاعتبار القرآني قلما يجده إلا من كان

من أهله عملاً به على تقليد أو اجتهد ، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده ، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده . بل تفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه . ويلزم من ذلك أن يكون معتداً به ، لجريانه على مجاريه .

والشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه ، فإنه كله جار على ما تقضى به العربية ، وما تدل عليه الأدلة الشرعية حسباً تبين قبل .

وإن كان الثاني فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم ، وأخذته على إطلاقه فيه ممتنع ، لأنه بخلاف الأول ، فلا يصح إطلاق القول باعتباره في فهم القرآن ، فنقول : إن تلك الأنظار الباطنية في الآيات المذكورة إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المقدمة فهي راجعة إلى الاعتبار غير القرآني ، وهو الوجودي . ويصح تنزيله على معاني القرآن ، لأنه وجودي أيضاً ، فهو مشترك من تلك الجهة ، غير خاص فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا ما يطالبه الرب ، وهو أمر خاص ، وعلم منفرد بنفسه ، لا يختص بهذا الموضع ، فلذلك يوقف على محله . فكون القلب جاراً ذا قربي ، والجار الجنب هو النفس الطبيعي ، إلى سائر ما ذكر ، يصح تنزيله اعتبارياً مطلقاً . فإن مقابلة الوجود بعمه يعض في هذا النمط ، صحيح وسهل جداً عند أربابه غير أنه مُعَرَّرٌ بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ . وأيضاً ، فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى المقصود المخاطب به الخلق ، بل أجراه مجراه ، وسكت عن كونه هو المراد . وإن جاء شيء من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآني والوجودي . وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو ، بعد ، في السلوك سائر على الطريق ، لم يتحقق بمطلوبه . ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم . وللغزالي في مشكاة الأنوار ، وفي كتاب الشكر من الإحياء ، وفي كتاب جواهر القرآن في الاعتبار القرآني وغيره ، ما يتبين به لهذا الموضع أمثلة . فتأملها هناك والله الموفق .

ثم قال الشاطبي :

فصل

وللسنة في هذا النمط مدخل . فإن كل واحد منهما قابل لذلك الاعتبار المتقدم الصحيح الشواهد ، وقابل أيضا للاعتبار الوجودي ، فقد فرضوا نحوه في قوله عليه السلام « لا ندخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة »^(١) إلى غير ذلك من الأحاديث . ولا فائدة في التكرار إذا وضع طريق الوصول إلى الحق والصواب .



(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٧ - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ، عن أبي طلحة . ونصه : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا ندخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل » .